نحو مقاربة لمسألة اندماج المغاربة في المجتمع الدمشقي في العصور الوسطى

د. نها ملاعب،
أستاذة التاريخ الإسلامي،
الجامعة اللبنانية، بيروت، لبنان.

أولاً: مدخل

تعني بلاد المغرب في مصطلح جغرافية العصور الوسطى، المناطق التي تلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي، وامتدت من بَرْقَة إلى السوس الأقصى والأندلس تضمنة جزائر البحر المتوسط والمغارب الأدنى (إفريقية) والأوسط والأقصى، حيث أطلقت لفظة "بلاد المغرب" على كل بلاد المغرب بما فيها الأندلس. وأطلقت، في الوقت نفسه، على أقاليم المغرب الإفريقي المعروف اليوم بشمالي إفريقية، عند الإشارة إليها بمعزل عن الأندلس (الحموي، ي. ج5، لا.ت: 160، 161؛ المقدسي، م. لا.ت: 215- 224؛ ابن خلدون، ع. ج6، 2003: 114- 120؛ Lévi-Provençal, E. and others, 1979: 486; Yver, G.1986: 1183). وعلى هذا، فإن لفظة "المغاربة" التي تطلق في المصادر المشرقية والمغربية على سكان المغرب الإفريقي والأندلس على السواء، جاءت مراعية للموقع الجغرافي لهؤلاء السكان، فيما تقابلها إطلاق لفظة المشارقة على أهل المشرق (Talbi, M. 1986: 1159; Talbi, M. 1991: 712) واستخدمت الدراسات الأوروبية لفظة "الموريين": "Moors" للدلالة على مسلمي المغرب والأندلس من العرب والبربر. (De-Gaury, G. 1951: 82, 120, 121, 148; Lévi- Provençal, E. and Van-Donzel, E.1993:235-236)

كان المغاربة ينتمون إلى أمتين أساسيتين:

- البربر: سكان المغرب (الشمال الإفريقي اليوم) الأصليين، ويمثلون في العصر الإسلامي، الأكثرية الساحقة من سكانه (الحميري، م. 1975: 115؛ ابن فضل الله العمري، أ. ج4، 2002: 390- 494؛ ابن خلدون، ع. ج6، 2003: 125 وما بعده؛ الناصري السلاوي، أ. ج1، 1954: 57- 58)

وقد شكل البربر في الأندلس جماعة كبيرة العدد، انتقلوا إليها من المغرب ولا سيما من المغرب الأقصى، على مراحل متتالية خلال العصور الإسلامية، لأسباب اجتماعية أو سياسية أو دينية) ابن سعيد، ع. ج 1، 1997: 253- 255، ج2، 1997: 86- 87؛ ابن الخطيب، م. ج1، 1973: 134- 136؛ Lévi- Provençal, E. and others, 1979: 490)

- العرب: دخل أكثرهم بلاد المغرب مسهمين في أعمال الفتح واستقروا فيها. وهناك جماعات عربية دخلت إلى البلاد خلال السنوات التالية مُشاركة في الحملات

التي سيرتها السلطة المركزية إلى بلاد المغرب. وشكلت القبائل العربية من أجناد الشام غالبية عرب الأندلس، لاسيما منذ حلّ فيها الأمويون)ابن الخطيب، م. ج1، 1973: 135- 136؛ المقري، ج1، 1997: 290- 298؛ (Talbi, M. 1986:1159

واستقر ببلاد المغرب، أيضاً، جماعة كبيرة من الأشراف العلويين الحسنيين والحسينيين الهاشميين (ابن الخطيب، م.ج4، 1977: 56- 57) وجماعات حيوية من اليهود، ومن المسيحيين المعروفين في المصادر العربية بـ " النصارى" أو "الروم"، أو "الفرنج"؛ مع الإشارة إلى أن بعض اليهود والنصارى قد تحولوا، منذ الفتح وما بعده، عن دين أسلافهم الى الإسلام (ابن سعيد، ع. 1959: 73- 85؛ ابن الخطيب، م. ج1، 1973: 296- 297)

ثانياً: قدم التواصل بين الشام والمغرب

بدأت الصلات بين الشام وبلاد المغرب منذ زمن فتح العرب المسلمين لتلك البلاد، ونشأت عن تلك الفتوحات وحدة سياسية شملت البلاد المفتوحة كلّها. وتقبَل المغاربة عادات الشاميين وتقاليدهم وطُرُق عيشهم، لاعتقادهم بأن الكمال فيهم؛ فـ "النَفْس أَبَداً تعتقدُ الكمالَ في مَنْ غَلَبَها وانقادَتْ إليه" وفق ما ذكره ابن خلدون في مقدمته (ابن خلدون، ع. مقدمة، لا.ت: 162)

وقد شهد القرنان الثاني والثالث الهجريان حركة نشطة للمغاربة باتجاه المشرق الإسلامي، فكان الحج والإقبال على دراسة علوم الدين والتعرف عليها في منابعها، من أهم بواعث انتقال المغاربة إلى المشرق (ابن خلدون، ع. مقدمة لا.ت: 481). وفي تلك الفترة المبكرة انتقل المذهب المالكي إلى المغرب الإسلامي، على يد جماعة من علماء المغرب الإسلامي ممن أخذوا الفقه وسمعوا "الموطّأ" في المدينة من الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ/795م) ؛ من هؤلاء: زياد بن عبد الرحمن اللخمي القرطبي المعروف بشَبَطُون (ت 193 أو 199هـ/ 808 أو 814م) وتلميذه يحيى بن يحيى الليثي المغربي ثم القرطبي (ت 234هـ/849م) اللذان كانا أول من نشر مذهب مالك في الأندلس (ابن خلكان، أ. ج6، 1994: 143- 146؛ المقري، أ. ج 1، 1997: 340- 341، وج 2، 1997: 9- 12، 45- 46) وسُحْنُون بن سعيد الإفريقي (ت 240هـ/85م) الذي نشر المذهب في افريقية (الحموي، ي. ج1، 1995: 231). ولم يكن الحضور الفاطمي في المغرب ذا تأثير على تمسك المغاربة بالمذهب المالكي، فعم انتشاره في بلادهم، وبخاصة منذ أواسط القرن الخامس الهجري، ليستمر كذلك على مدى العصور الإسلامية (الصفدي، خ. ج 17، 1982: 249- 250؛ ابن خلدون، ع. مقدمة، لا.ت: 497- 499؛ (Dozy, R.1972: 243

لقد شجّع انتقال الفاطميين إلى مصر عام 362هـ/973م، توافد المغاربة إليها، ومنها انتقلوا إلى دمشق مما جعل لهم حضوراً مميزاً في الحياة السياسية والعسكرية

والاجتماعية فيها(ابن القلانسي، ح. 1983: 20، 162- 164، 175- 176؛ ابن الأثير، ع. ج10، 1995: 59، 246؛ كاهين، ك. 1995: 175)، ومنذ تلك الفترة لمعت في بلاد الشام شخصيات مغربية مثل المحدث أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن حزْم الغافقي الأندلسي (تـ 404هـ/1014م) صاحب الحِسْبَة بدمشق زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (المقري، أ. ج2، 1997: 604- 605) والحسين بن علي المغربي(تـ 418هـ/1027م) المعروف بـ"الوزير المغربي"؛ أشهر ساسة وأدباء عصره في البلاط الفاطمي (ابن خلكان، أ. ج2، 1969: 172- 177) والفقيه المالكي أبو عمران موسى بن عيسى الفاسي (تـ 429هـ/1038م) المؤسس الروحي لدولة المرابطين في المغرب (ابن الأثير، ع. ج9، 1995: 618- 619؛ الحميري، م. 1975: 435؛ ابن خلدون، ع. ج6، 2003: 182- 183، الناصري السلاوي، أ. ج1، 1954: 208، وج2، 1954: 5- 10) والفقيه المالكي أبو الوليد الباجي (تـ 474هـ/1081م) الذي جال في أنحاء المشرق طلباً للعلم، وكان في رحلته العلمية قدوة للمغاربة الذين زاروا الشام من بعده (ابن خلكان، أ. ج2، 1969: 408- 409؛ المقّري، أ. ج2، 1997: 29، 67- 69، 71- 77) لتنشط على الأثر حركة المغاربة إلى دمشق خلال العصور الوسطى.

ومن خلال ما ذكره المؤرخ **المقري** التلمساني، يتضح ما كان يحمله المغربي في ذاته من احترام عميق للمشرق الإسلامي؛ بوصفه مهد الرسول ومقصد الحجّاج، وقاعدة العلوم الدينية والدنيوية، لاسيما منذ أواخر القرن الخامس الهجري، حين ضعفت الحياة العلمية في بلاد المغرب بفعل حالة الاضطراب السياسي والعسكري السائدة في تلك البلاد وقتذاك (أبو شامة، ع. 1974: 159؛ المراكشي، م. ج4، 1964: 89؛ الذهبي، م. حوادث 511- 520، 1994: 390؛ الذهبي، م. حوادث 631- 640، 1988: 10؛ الصفدي، خ. ج 7، 1981: 286؛ المقري، أ. ج4، 1997: 352؛ ابن خلدون، ع. مقدمة لا.ت: 478- 481).

ولهذا يمَّم المغاربة في تلك الفترة، التي شهدت ما عرف بـ "الحروب الصليبية"، شطر المشرق الإسلامي، على هيئة مجاهدين وطلبة علم وحجاج وتجار وزوّار ورحالين. وكانت مدينة دمشق من أهم الحواضر بالنسبة إليهم، فقصدوها واستقروا فيها، تشدّهم إليها سلطة سياسية قوية، في العصرين الأيوبي والمملوكي، استطاعت، على عكس ما حصل في بلادهم، من احتواء حركة الفرنج وإزالة كياناتهم السياسية في الشام، فضلاً عن نهضة علمية ودينية، عززت أواصر اللحمة بين أبناء المجتمع الإسلامي، فأصبحت دمشق مركزاً علمياً ذائع الصيت. كما كان للأخلاق الرفيعة التي تمتع بها سكان المدينة دور هام في استقرار المغاربة في حاضرة الشام (Gilbert, J. 1980: 106, 111, 118, 128)

كان الأندلسيون القادمون إلى دمشق – وهم في مجملهم من أنساب عربية، ودخلوا البلاد كجند فاتحين وأمويين - الأكثر عدداً من أقرانهم المغاربة الآتين من البلاد المسماة اليوم "شمال إفريقية". ويأتي في الدرجة الأولى أولئك القادمين من إشبيلية، ويليهم على التوالي أهل قرطبة، مرسية، شاطبة، جيان ثم مالقة وغرناطة. وكان من بين المغاربة القاصدين إلى الشام جمع من اليهود، احتضنتهم السلطات القائمة فيها على قاعدة سياسة التسامح اتجاه أهل الذمة)القفطي، ع. 1326هـ: 257- 258؛ كاهين، ك. 1995: 217؛ Kirk, G. 1952: 40) فحلّ أبو عمران موسى بن ميمون اليهودي أو "الإسرائيلي" القرطبي (ت605هـ/1208م) طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ومن ثمَّ للملك الأفضل علي ابن صلاح الدين (القفطي، ع. 1326هـ: 209؛ ابن أبي أصيبعة، أ. ج3، 1979: 195). وعمل ابنه الطبيب أبو المنى إبراهيم (ت بعد 630هـ/1232م) في خدمة السلطان الكامل الأيوبي (ابن أبي أصيبعة، أ. ج3، 1979: 256- 257؛ الصفدي، خ. ج3، 1981: 330- 331). كما كان أبو الحجاج يوسف بن يحيى الإسرائيلي الفاسي(ت 623هـ/1226م) طبيباً للملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين (إبن أبي أصيبعة، أ. ج3، 1979: 350؛ الذهبي، م. حوادث 601- 610هـ، 1988: 349).

ثالثاً: مكانة المغاربة في المجتمع الدمشقي

أقام المغاربة في دمشق، يعملون ويدرّسون ويصنفون ويجاهدون ويتاجرون دون معوّقات، بحيث فُضّلوا، في أحيان كثيرة على الشاميين أنفسهم؛ فمنهم من لازم الملوك والأمراء وكانوا موضع تقديرهم واحترامهم، واكتسبوا بذلك مكانة اجتماعية مميزة، واحتلوا منزلة مقدَّرة في المجتمع الدمشقي، لأسباب عديدة تأتي في طليعتها: إسهاماتهم في حركة الجهاد ضد الفرنج بوصفه جهاداً ضد أعداء الدين، فضلاً عن شهرتهم الذائعة الصيت بتمرسهم في مجاهدة الفرنج في بلادهم (ابن منقذ، أ. 1999: 94- 95؛ ابن الأثير، ج11، 1979: 130، 197؛ ابن جبير، م. لا.ت: 34- 35، 260، 270- 274، 280؛ أبو شامة، ع. ج1، 1287- 1288هـ: 53، 94- 95؛ أبو شامة، ع. ج 2، 1287- 1288هـ: 125؛ الجزري، م. ج1، 1998: 158؛ Runciman, S. 1954: 334.) وسمو المناصب العلمية والإدارية التي أسندت إليهم (ابن شداد، م. ج1، ق1، 1953: 104- 105؛ ابن كثير، إ. ج 14، 1983: 82، 91؛ ابن بطوطة، م. لا.ت: 123؛ النعيمي، ع. ج1، 1990: 25- 26، 87- 89، 107، 159، 169، 211- 212، 244، 246، 348، 352- 353؛ النعيمي، ع. ج2، 1990: 3، 8- 9) بالإضافة إلى ما تمرسوا به من علم ومهارات ووظائف ومهن (ابن منقذ، أ. 1999: 70؛ ابن جبير، م. لا.ت: 250، 281؛ أبو شامة، ع. 1974: 157، 157، 227).

على أن أكثر ما يلفتنا المصنفات المفيدة للمغاربة في دمشق في مختلف العلوم

العقلية والنقلية، وجاءت بعضها فريدة ومختلفة اختلافاً بيّناً عن سواها، وتناولتها أجيال من العلماء والمفكرين المسلمين درساً وتمحيصاً. ومنها: كتاب "سراج الملوك" للفقيه المالكي أبي بكر محمد الطرطوشي (ت520هـ/1126م) أحد أقدم الكتب في مجال "الفكر السياسي" (الخالدي، ط. 1997: 247، 290) وقصيدة "الشاطبية" في علم القراءات، الجديدة في أسلوبها ورموزها وإشاراتها، للفقيه الشافعي الشيخ المقرئ القاسم بن فِيرُّة الرُّعيني الشاطبي الضرير المعروف بأبي القاسم الشاطبي، الذي زار الشام وتوفي بالقاهرة عام 590هـ/ 1194م (ابن خلكان، أ. ج4، 1991: 71؛ ابن كثير، إ. ج13، 1983: 10؛ ابن خلدون، ع. مقدمة لا.ت: 485؛ المقري، أ. ج2، 1997: 23- 24؛ (Neuwirth, A. 1979: 365-366) ومؤلفات المتصوف محيي الدين محمد بن عربي المرسي الأندلسي (ت 638هـ/1240م) التي ابتكر فيها قواعد علم التصوف فضلاً عن احتوائها دقائق مختلف العلوم والفنون بما لا يمكن إيجاده في مؤلفات أخرى (ابن عربي، م. ج4، 1998: 545؛ الصفدي، خ، ج4، 1981: 173- 175؛ اليافعي، ع. ج4، 1338- 1339هـ: 170؛ ابن كثير، إ، ج13، 1983: 156؛ المقري، أ. ج2، 1997: 161- 184؛ حاجي خليفة، م. ج2، 1990: 1262- 1265؛ البغدادي، إ. ج2، 1955: 114- 121؛ (Ateş, A. 1979: 708-709

وشهر الكتاب الجليل والفريد للطبيب ابن البيطار المالقي (ت646 هـ/1248م) في الأدوية المفردة (ابن أبي أصيبعة، أ. ج3، 1979: 221- 222؛ المقري، أ. ج2، 1997: 692) وألفية ابن مالك الأندلسي المتوفى بدمشق عام 672هـ/1275م في علم النحو، إذ أحيا من خلالها "معالم طامسة" في هذا العلم (الصفدي، خ. ج2، 1981: 366، وج3، 1981: 359- 362، وج 19، 1993: 508؛ المقري، أ. ج2، 1997: 222- 225، 231- 232، 664؛ النعيمي، ع. ج 1، 1990: 357؛ حاجي خليفة، م. ج1، 1990: 151- 155؛ (Fleisch, H. 1979: 861-862 ؛ هذا إلى جانب الموشحات البديعة التي اختص بها المغاربة، ونظمها علماؤهم في دمشق كالطبيب عبد المنعم الجلياني (ت 603هـ/1207م) وابن عربي، والمتصوف الششتري (ت 668هـ/1269م) والأديب شمس الدين محمد التلمساني (ت688 هـ/1289م) (ابن أبي أصيبعة، أ. ج3، 1979: 265؛ الذهبي، م. حوادث 601- 610، 1988: 134- 135، 349- 350؛ الصفدي، خ. ج 29، 1997: 258- 259؛ المقري، أ. ج2، 1997: 181- 182، 185، 555- 558)؛ وكذلك كتب الرحالة المغاربة الذين زاروا المدينة، خاصة كتاب رحلة ابن جبير، من حيث تركيزه على النواحي الاجتماعية لمدينة دمشق، فقدم لنا معلومات مفيدة يمكن الركون إليها لمعرفة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمدينة في فترة "الحروب الصليبية" (زيادة، ن. 1987: 168؛ القلصادي، ع. 1978: 62؛

-

Ghovirgate, A.: De Toulouse à Tripoli, Itinéraire des Cultures Croisées, "La Représentation des Croisades dans le Récit de Voyage d'Ibn Ğubayr", Balamand, 1997, (197-210).

بالإضافة إلى ذلك، شهرت مصنفات المغاربة في دمشق، في علم الفلك والتنجيم التي كان لها أثر واضح على علاقتهم بحكام الشام ، فلجأوا إليهم لاستشراف مستقبل حكمهم ومدى قدرتهم على مجابهة الأعداء (الحموي، ي. ج1، 1995: 489؛ ابن واصل، م. ج 4، 1972: 330- 331؛ الصفدي، خ. ج24، 1993: 251- 252؛ النويري، أ. ج 29، 1992: 480- 481).

ومما رفع من منزلة المغاربة في دمشق، ما تركه هؤلاء من المؤلفات والأصول النفيسة ووضعوها بتصرف العلماء وطلبة العلم، فضلاً عما وقفه بعضهم مما اقتناه من الكتب على مختلف المؤسسات العلمية في المدينة. فمن المعروف عن المحدث أبي بكر محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الجيّاني، المتوفى بحلب عام 566هـ/1170م، أنه وقف كتبه لطلبة الحديث في بلاد الشام (ابن عساكر، ع. ج 54، 1995: 399- 340) وثمة "مكتبة مغربية" في دمشق تعود إلى هذه الفترة (كاهين، ك. 1995: 157). وكان الفقيه الشافعي كمال الدين إسحاق المغربي (ت 650هـ/1253م) ينسخ "ختمة" في شهر رمضان من كل سنة ويقدمها وقفاً في دمشق (ابن قاضي شهبة، ج 2، 1987: 102)؛ هذا إلى الكتب القيمة التي تركها بدمشق كل من: العلاّمة المفسّر شرف الدين محمد المرسي (ت655 هـ/1257م) (المراكشي، م. ج6، 1973: 402- 403؛ الذهبي، م. حوادث 651- 660، 1999: 211- 212؛ الصفدي، خ. ج3، 1981: 354- 355)، والمقرئ جمال الدين أحمد بن شعيب التميمي الصقلي (ت663هـ/1265م) الملقب بـ "الكتبي" (أبو شامة، ع. 1974: 235)، والمحدث ضياء الدين إبراهيم المرادي الإشبيلي (ت 688هـ/1289م) الذي وقف كتبه على المدرسة البادرائية الشافعية (الصفدي، خ. ج6، 1972: 78؛ ابن قاضي شهبة، أ. ج2، 1987: 127)

وقدم المحدث ابن فرح الإشبيلي جميع ما كتبه، وهو كثير، للمدرسة الشامية (اليونيني، م. حوادث 697- 711هـ، 1991: 176- 182)؛ ووقف الحافظ علم الدين القاسم البرزالي المغربي (ت739 هـ/1338م) مكتبته الضخمة المؤلفة من أربع خزائن، على دار الحديث النورية وغيرها من أماكن العلم في دمشق (الصفدي، خ. ج24، 1993: 161- 163؛ ابن كثير، إ. ج 14، 1983: 185- 186). كما ترك الحافظ فتح الدين محمد بن سيد الناس اليعمري الإشبيلي (ت 734هـ/1333م) مكتبته العامرة بتصرف طلبة العلم (الصفدي، خ. ج1، 1981: 289- 311).

تستدعي مكانة المغاربة المقدرة في مختلف الأوساط الدمشقية طرح السؤال حول مسألة اندماج هؤلاء في مجتمع دمشق؛ فهل كان ذلك متعذراً أم ممكناً؟ وإذا

كان ما ذكرناه حول مشاركة المغاربة في المهام والأعباء العامة للمدينة، والمنزلة الرفيعة التي حازوا عليها جرّاء ذلك، يظهر إمكانية استبعاد الاحتمال الأول وترجيح الاحتمال الثاني، فهل كان هذا الاندماج كاملاً أم منقوصاً؟

رابعاً: عوامل اندماج المغاربة في المجتمع الدمشقي

1- الأوقاف:

يمكننا التحدث عن احتمالات واسعة لعملية اندماج المغاربة في المجتمع الجديد، من خلال سبل المعاش الموفرة لهم في دمشق، عن طريق أوقاف ومرافق كانت "أكثر من أن يأخذها الإحصاء.."، وفق ما ذكره الرحالة المغربي ابن جبير (ابن جبير، م. لا.ت: 258) اختصت بالعلماء وطلبة العلم والفقراء، وضمنت لهم قدراً من مقوّمات الحياة الهادئة، من مأوى وملبس ومأكل (ابن جبير، م. لا.ت: 245، 255، 256، 262-263؛ ابن بطوطة، م. لا.ت: 122). ويعدد ابن جبير الأوقاف التي عينها نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي للمغاربة المقيمين في دمشق، فيقول مثلاً: "ومن مناقب نور الدين، أنه عين للمغاربة..... أوقافاً كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين.. إن هذا الوقف المغربي يُغِلّ.. خمس مئة دينار في العام.." (ابن جبير، م. لا.ت: 257)، وإلى جانب الزاوية المالكية، يفرد ابن جبير الأوقاف المخصصة للمغاربة المدرسين والفقراء النازلين في الجانب الشرقي من الجامع وخارجه، في مختلف أنحاء المدينة، في عهد صلاح الدين (ابن جبير، م. لا.ت: 250، 264- 265).

ولم تقتصر المعونات المادية للمغاربة في دمشق على المخصصات النقدية والعينية التي يحصلون عليها من عائدات الأوقاف، بل تعدت هذا العطاء الجماعي إلى معونات فردية من الحكام والأعيان قدمت للمغاربة تقديراً لكفاءاتهم وقدراتهم العلمية؛ ومثالنا أن الحافظ الدمشقي هبة الله بن أحمد بن الأكفاني (ت 524هـ/1130م) استضاف الفقيه أبا الحسن مروان السِّقلي المغربي في منزله، وتكفّل بجميع حوائجه مدة مقامه (ابن عساكر، ع. ج57، 1995: 312- 313)؛ وقدّم نور الدين زنكي مساعدة مقدرة للفقيه المالكي أبي محمد عبدالله الأشيري الصنهاجي (ت561هـ/1166م) وأسرته حين انتقل الأخير مدرساً من دمشق إلى حلب (ابن عساكر، ع. ج32، 1995: 234- 235؛ القفطي، ع. ج2، 1952: 137- 138). كما لقي الطبيبان الأندلسيان عبد المنعم الجلياني ويحيى البياسي الإنعام الوافر من السلطان صلاح الدين (ابن أبي أصيبعة، أ. ج3، 1979: 259، 268)؛ ونال ابن معطي النحوي الزواوي (ت 628هـ/1231م) رعاية الملك المعظم عيسى بن العادل وابنه السلطان الكامل الأيوبي (ابن خلكان، أ. ج6، 1994: 197؛ ابن واصل، م. ج5، 1977: 158- 160).

2- سكنى المغاربة

وتجلى اهتمام الدمشقيين بالمغاربة، من خلال حسن استضافتهم لهم وتأمين ما يحتاجونه من مأوى ومسكن. فقد سكن المغاربة في منازل متفرقة في المدينة، وفي مختلف المؤسسات العلمية والدينية كالمساجد والمدارس والرباطات والترب التي كانت مهيأة لاستقبال طلبة العلم والعلماء، وإيواء الفقراء والمحتاجين(ابن جبير، م. لا.ت: 245، 250- 251، 257- 259، 261، 263؛ أبو شامة، ع. 1974: 29، 153، 157- 158، 186،195، 227؛ ابن بطوطة، م. لا.ت: 104، 122؛ النعيمي، ع. ج 2، 1990: 10، 11؛ Gilbert, J. 1980: 118, 124). كما توزع المغاربة سكناً في نواحٍ متفرقة في الجامع الأموي ومحيطه، وفي غوطة دمشق، وبعض القرى المحيطة بالمدينة (ابن عساكر، ع. ج48، 1995: 24، وج 54، 1995: 151، وج55، 1995: 69- 70؛ أبو شامة، ع. 1974: 162، 168، 171، 198، 233؛ المقري، أ. ج2، 1997: 157).

على أنه لم يظهر في المصادر ما يدل على وجود حارة أو حي للمغاربة في دمشق. وهذا ما يقودنا إلى السؤال التالي: هل أن الحضور المغربي في دمشق، خلال القرنين السادس والسابع للهجرة، ما كان في وضع يمكنه من تأسيس حالة مغربية داخل المدينة؟ أم أن حسن الضيافة التي وفّرها الدمشقيون للمغاربة أسهم في توزع هؤلاء أفراداً وأسراً في مختلف أحياء المدينة؟ وهل أن واقع انتشارهم في المدينة، وهم ليسوا بقلة، كان بمثابة خطوة مهمة على طريق الاندماج والانخراط في بيئتها بدلاً من الانزواء والانعزال في حي أو حارة تختص بهم؟

3- دور العلم المغربية في دمشق

إلى جانب المساكن، ظهرت في حاضرة الشام دور علمية ودينية ارتبطت مباشرة بالمغاربة؛ مثل المدرسة المسمارية المنسوبة إلى التاجر الحسن بن مسمار الهلالي المغربي (تـ 546هـ/1151م) (ابن شداد، م. ج1، ق2، 1956: 256؛ النعيمي، ع. ج 2، 1990: 89)، وزاوية شيخ المغاربة عبد الصمد الدكالي (تـ682هـ/1284م) في الجامع الأموي (أبو شامة، ع. 1974: 131، 157- 158، 207)، والزاوية الشاذلية لأتباع المتصوف المغربي أبي الحسن علي الشاذلي (تـ656هـ/1258م) (الصفدي، خ. ج21، 1988: 214- 217). وكان لقاضي القضاة المالكي جمال الدين يوسف الزواوي المغربي (تـ717هـ/1317م) اليد الطولى في تشييد المدرسة الصمصامية المالكية، وتجديد مدرسة نور الدين زنكي "المدرسة النورية" (النعيمي، ع. ج2، 1990: 11). كما سُجل للفقيه علاء الدين علي التّجيبي الشاطبي (تـ 721هـ/1321م) دور ملفت في إنشاء المؤسسات العلمية في دمشق، ومنها المسجد المعروف بـ"مسجد الشاطبي" (الصفدي، خ. ج2، 1981: 320- 321؛ النعيمي، ع. ج2، 1990: 272).

4- علاقات الزواج والمصاهرة

ومن أبرز تجليات اندماج المغاربة في المجتمع الدمشقي علاقات الزواج والمصاهرة مع سكان المدينة. وأكثر ما تجسد هذا الأمر بين العلماء وطلبة العلم، إذ يبدو واضحاً أن العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية أكثر ما تفرض نفسها بين هؤلاء. فالمتصوف ابن عربي، مثلاً، تزوج ابنة أحد القضاة الدمشقيين، وأضحت المدينة مستقره وموطنه (المقري، أ. ج2، 1997: 179). كما أن المقرئ ابن شعيب الكتبي تزوج من ابنة أستاذه علم الدين السخاوي (ت643هـ/1245)، وتزوج المؤرخ علم الدين البرزالي، صاحب كتاب "المقفّى على تاريخ أبي شامة"، امرأة دمشقية، عالمة، اسمها دنيا (ابن حجر، أ. ج2، 1997: 59).

ولعل أروع صور الروابط الاجتماعية بين الدماشقة والمغاربة تتمثل بحالة المؤرخ أبي شامة وأسرته. فوالده إسماعيل تزوج امرأة مغربية، وتزوج هو نفسه أمرأة أندلسية اسمها ست العرب، وزوَّج إحدى بناته بعبد الرحمن بن محمد البكري المراكشي، سليل أسرة البكري، من أشهر الأسر المغربية المستقرة في دمشق (أبو شامة، ع. 1974: 153، 189، 196، 217، 227، 232، 234 ؛ النعيمي، ع. ج2، 1990: 3-5).

ومن نتائج هذا التزاوج المغربي - الدمشقي، أن الأجيال التي ولدت في دمشق، غالباً ما أطلق على واحدهم مصطلح "الدمشقي"، فكان ذلك تطوراً ملحوظاً على طريق اندماج المغاربة في مجتمع المدينة. ومن مظاهر الاندماج، كذلك ما أطلق على بعض المغاربة في دمشق من ألقاب اعتمدها أعيان المشرق وعلماؤه، ولم تكن معهودة في المغرب الإسلامي، مثل: شمس الدين أو بدر الدين أو زين الدين. وقد لاحظ هذه الظاهرة كتّاب ومؤرخو المغرب الإسلامي كابن جبير والمراكشي والمقري (انظر: ابن جبير، م. لا.ت: 267؛ المراكشي، م. ج5، ق1، 1965: 421، وج6، 1973: 302؛ المقري، أ. ج2، 1997: 15، 196، 374).

5- المقابر المختلطة مع الدماشقة

من مظاهر انصهار المغاربة في المجتمع الدمشقي، تلك المكانة التي حفظت لهم بعد وفاتهم، عبر مشاركة الدمشقيين بجنائزهم ودفنهم في مختلف مقابر المدينة. وقد أمدتنا المصادر بمعلومات عن تعظيم أهل دمشق، من الخاصة والعامة، لموتى المغاربة (ابن عساكر، ع. ج43، 1995: 135، وج54، 1995: 188؛ أبو شامة، ع. 1974: 17، 162، 176؛ ابن كثير، إ. ج14، 1983: 84، 91، 203؛ النعيمي، ع. ج1، 1990: 90، وج 2، 1990: 12). فالمتصوف ابن عربي، المتوفى بدمشق في دار قاضيها محيي الدين يحيى بن الزكي (ت 668هـ/1270م)، أقيمت له جنازة مشهودة في جامع

دمشق، ودفن في تربة بني الزكي العريقة، ثم أصبح موضع دفنه تربة مشهورة له ولأولاده من بعده (أبو شامة، ع. 1974: 170؛ المقري، أ. ج2، 1997: 162، 170، 172). وحضر نائب الشام المملوكي حسام الدين لاجين جنازة القاضي المالكي زين الدين عبد السلام الزواوي عام 681هـ/1281م (الصفدي، خ. ج18، 1988: 431). وإثر وفاة المحدث الصوفي أحمد ابن فَرْح اللخمي الإشبيلي بدمشق عام 699هـ/1300م، شيعته ".. جماعة كثيرة لأجل بركته وخيره وزهده" (اليونيني، م. حوادث 697- 711هـ، 1991: 181- 182). كما كان لبعض المغاربة، كالفقيه المالكي أبي الحجاج يوسف الفِنْدَلاوي المغربي (ت 543هـ/1148م) والنحوي علم الدين القاسم المرسي (ت661هـ/1236م) من الرهبة والهيبة، بحيث أصبحت مقابرهم موضعاً يزار للتبرك والدعاء (أبو شامة، ع. ج1، 1287- 1288هـ: 53؛ أبو شامة، ع. 1974: 227؛ اليافعي، ع. ج 3، 1338هـ: 280).

وقد دفن المغاربة في مختلف مقابر دمشق. وكانت في المدينة مقبرتان أساسيتان اختصتا بالمغاربة: إحداهما المقبرة المعروفة بـ "فقراء المغاربة"، وتقع في مغارة الدم بجبل قاسيون، وتسمى أيضاً "مقبرة الشيخ عبد الصمد الدكالي" المغربي (أبو شامة، ع. 1974: 173) والمقبرة الأخرى هي مقبرة ابن زويزان، نسبة إلى واقفها الرئيس خليل بن إسماعيل بن زويزان (ت 628هـ/ 1231م)، الواقعة جنوبي مقابر الصوفية في الحيّز الجنوبي من دمشق، وتعرف بـ "التربة الزويزانية" (النعيمي، ع. ج2، 1990: 192) وكانت تختص بأشراف القوم في دمشق ومنهم المغاربة؛ فأول من دفن فيها الإمام أبو الحسن علي البكري المراكشي (ت 625 هـ/1227م) (أبو شامة، ع. 1974: 153)، وكذلك المحدث محب الدين أحمد بن تميم اللبلي الأندلسي (ت 625هـ/1228م) الذي كان من وجوه المغاربة، ومؤذن المدرسة العادلية الشيخ أبو الحسن علي المالقي (ت 626هـ/1229م) وغيرهم (أبو شامة، ع. 1974: 153، 157).

وعدا ذلك، فقد توزعت رفاة المغاربة في مختلف مقابر المدينة، في جبل قاسيون وباب الفراديس وباب توما وباب شرقي وفي مقابر باب الصغير، ومقابر الصوفية.

خامساً: معوقات اندماج المغاربة في المجتمع الدمشقي

على الرغم من تعدد الظروف المتاحة لاندماج المغاربة في المجتمع الدمشقي، فليس ثمة ما يشجع على القول بأن انصهار المغاربة في بوتقة الحياة العامة في الحاضرة الشامية كان كاملاً. يعود ذلك إلى جملة معوقات حالت دون نجاح المغاربة في إحداث اختراق واسع في البنية المجتمعية للمدينة، على قاعدة الاندماج الكلي والانصهار. ومن تلك المعوقات:

1- التباين المذهبي

لقد أحجم معظم سكان مدينة دمشق عن اعتناق المذهب المالكي، مذهب أغلبية المغاربة، ويعكس ذلك ندرة المدارس المالكية في دمشق، حيث لم يظهر، في القرنين السادس والسابع الهجريين، سوى أربع مدارس مالكية، هي: الزاوية المالكية، والمدرسة الصلاحية، والمدرسة الشرابيشية، والمدرسة الصمصامية، في مقابل عشرات المدارس التابعة للمذهب الشافعي السائد في المدينة. واستطراداً، فإن إقبال طلبة العلم الدمشقيين على اكتساب المذهب المالكي كان ضعيفاً.

يضاف إلى ذلك، أن أهل دمشق وحكامهم لم يظهروا اطمئنانهم اتجاه المغاربة، المنتقلين إلى مذهبهم. بحيث أننا لم نلحظ أيّاً من المغاربة الشوافع خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، من ارتقى منصب قاضي القضاة الشافعية في دمشق باستثناء جمال الدين سليمان الأذرعي (تـ 734هـ/1333م). وانحصرت مناصب من كان منهم على المذهب الشافعي في التدريس ونيابة القضاء والعدل.

2- اختلاف الطباع والعادات والسلوكات هناك سمات اختص بها المغاربة، تتعلق بحياتهم الاجتماعية وسلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم، ولباسهم وطعامهم. فعرف عنهم، مثلاً: حدة الطباع ، والجفاء، والمشاكسة، والاعتداد بالنفس، والبخل، وغيرها من السلوكات التي أشار إليها مؤرخون كبار، مغاربة ومشارقة، والتي كان لها، على ما يبدو، دور في الإساءة إلى سمعة المغاربة في المدينة. (ابن عساكر، ع، ج53، 1995: 60- 61؛ ابن سعيد، ع. 1945: 20- 21؛ العبدري، م. 1968: 126؛ المراكشي، م. ج5، ق1، 1965: 650- 651؛ الصفدي، خ. ج3، 1981: 363- 364؛ ابن العماد، ع. ج5، 1351هـ: 339)

إذا ما توقفنا عند ظاهرة البخل والتقتير وحب المال لدى المغاربة، نلاحظ أنها لفتت انتباه جملة من أعيان المشارقة، كالذهبي والصفدي، إلى جانب ابن خلكان والقزويني واليونيني وابن حجر (الذهبي، م. حوادث 651- 660، 1999: 133؛ الصفدي، خ. ج3، 1981: 359- 360) فيما دفع أبو شامة هذه التهمة عن المغاربة، وذكر مثلاً ، بأن ما تمتعت به زوجته من عقلانية وحسن تدبير في حياتها كان في نظر الآخرين بخلاً (أبو شامة، ع. 1974: 197). وفيما اعترف بعض المغاربة، كالفقيه أبي بكر طرطوشي، بحالة البخل عند أبناء قومهم وأقرّوها (ابن خلكان، أ. ج4، 1971: 263؛ المقري، أ. ج2، 1997: 86) التمس بعضهم الآخر، كالرحالة علي بن سعيد العنسي الغرناطي (تـ 685هـ/1286م) والنحوي أبو حيّان محمد النّفزي الغرناطي العذر للمغاربة البخلاء، وهو خوفهم من التذلل للناس بسبب فقر أو عوز أو حاجة (المقري، أ. ج1، 1997: 223). يقول الصفدي، مثلاً، عن شيخه أبي حيان: "كان يفتخر بالبخل، كما يفتخر غيره بالكرم، وكان يقول لي: أوصيك احفظ دراهمك ويقال عنك

بخيل، ولا تحتج إلى السفل.." (المقري، أ. ج2، 1997: 543).

ومن المغاربة في دمشق، ممن أشير إليهم في بعض المصادر بحب المال: النحوي علي بن الزّقاق الإشبيلي (تـ 605هـ/1208م) وابن شعيب الكتبي، والطبيب جمال الدين إبراهيم بن المغربي (تـ 756هـ/1355م) المشهور بشحّه، رغم ما حصّل في حياته من جاه ومال ونفوذ (اليونيني، م. ج4، 1961: 350؛ ابن حجر، أ. ج1، 1997: 16).

3- المفارقات اللفظية

تميز المغربي في دمشق ببعض ألفاظه، وقد شكل حرف القاف علامة فارقة في لهجة المغاربة الذين يلفظون هذا الحرف قريباً من حرف الكاف. وإلى جانب ذلك هناك اختلاف واضح في اللهجة المغربية جملة، بما فيها "من إمالة وترخيم وترقيق وتفخيم" (الواهراني، م. 1968: 97؛ الصفدي، خ. ج5، 1981: 267- 268)، ومردّ ذلك إلى مؤثرات لغة الأوروبيين "العجمية" على اللسان العربي في المغرب بحكم الجوار (الصفدي، خ. ج1، 1981: 176، وج6، 1972: 344). وينعكس التأثير الأوروبي على أسماء المغاربة وألقابهم، فجاءت أيضاً مختلفة ومتميزة. وقد لاحظنا أن أسماء بعض المغاربة في المشرق الإسلامي حملت ألفاظاً غير عربية؛ فأبو القاسم الشاطبي عرف بابن "فيرُّه" وهي لفظة لاتينية "Ferrum"، وتعني بالعربية الحديد (ابن خلكان، أ. ج4، 1971: 72؛ الذهبي، م. حوادث 541- 550، 1995: 342) وكذلك فإن لفظة "باجّة"، هي "الفضة" بلغة "فرنج" المغرب (ابن خلكان، أ. ج4، 1971: 431). ومن الألفاظ اللاتينية التي وقعنا عليها عند المغاربة في المشرق؛ أسماء الشهور، ويسميها الرحالة أبو حامد الغرناطي بـ "شهور المغاربة" وهي شتنبر، اكتوبر، نونبر، دجنبر..... (الغرناطي، م. 1999: 46).

وبالإضافة إلى مؤثرات اللغة والثقافة البربرية على ألفاظ المغاربة، انعكس الاختلاف في الألفاظ على طريقة الكتابة عند المغاربة في دمشق، فجاءت متميزة ومختلفة عن الكتابة المشرقية. فقيل عن الأديب علي بن خروف القيسي القرطبي (تـ 604هـ/1208م): "وكتابته.. فيها مغربية ما، في غاية الصحة" (الصفدي، خ. ج22، 1983: 90) ولعل المقصود بذلك، الخط في الدرجة الأولى، إذ يشير الصفدي إلى عناية المغاربة في المشرق بما سمّاه "خطوط المغاربة" (الصفدي، خ. ج1، 1981: 238، 292).

ويرى **المقري** أنه من الصعوبة بمكان على رجل العلم أن يتقن الكتابة بالقلمين المغربي والمشرقي بحيث تكون كتابته على مستوى واحد من الجودة (المقري، أ. ج2، 1997: 595). وعلى العموم فقد تميز "الخط المغربي" بالانسياب، وشهر بالحسن والجمال والصحة والإتقان. (ابن خلكان، أ. ج3، 1970: 215؛ الجزري، م. ج1، 1998: 158؛ الصفدي، خ. ج6، 1972: 398، وج 12، 1979: 256؛ كونيل، أ. 1966: 134).

4- العامل النفسي وصعوبات التطبيع

من مظاهر معوقات اندماج المغاربة في المجتمع الدمشقي شيوع استخدام مصطلحات مثل "الغرباء" أو "الغريب" أو "الغرباء المغاربة"، كمرادف لمصطلح المغاربة في دمشق، ليس فقط في المصادر المشرقية، وإنما في المصادر المغربية نفسها (ابن جبير، م. لا.ت: 26، 250، 251، 257، 261، 280؛ أبو شامة، ع. 1974: 157؛ ابن شداد، م. ج1، ق1، 1953: 154؛ ابن بطوطة، م. لا.ت: 122). مع الإشارة إلى أن المغاربة ، وبصرف النظر عن موقف أهل الشام منهم، كان لديهم بعض التشبث بخصوصيتهم، ومرد ذلك عامة إلى الشعور والإحساس الفطري، الماثل في وعي الإنسان، بالتمسك بالانتماء إلى جماعته وأهل بلده. وقد عبّر الأديب المعروف ركن الدين الوهراني المغربي، نزيل دمشق عن ذلك بقوله (الوهراني، م. 1968: 97) لجار مغربي في دمشق:

أجارتنا إنّا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

وكان من الطبيعي، والحالة تلك، أن يراود المغاربة في دمشق ذلك الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن الأم، والشوق إلى الأهل والأحباب، فيتابعون بشغف شؤونهم وشجونهم؛ من ذلك كتاب الحافظ المتصوف أبي عبد الله محمد التميمي الفاسي (ت 604هـ/1206م) الموسوم بـ "رسالة البرهان في ذكر حنين النفوس إلى الأحبة والأوطان" (المراكشي، م. ج8، ق1، 1984: 356) هذا إلى انصراف الكثير من المغاربة في دمشق إلى رعاية جماعته المقيمين في المدينة، ومنهم خطيب بيت لهيا أبو الربيع سليمان القرطبي (ت 639هـ/1241م): ".. وهو متعلّق بسبب من أسباب البرّ في إيواء أهل الغرب من الغرباء المنقطعين بهذه الجهات، يسبّب لهم وجوه المعاش من إمامة مسجد أو سكنى بمدرسة... أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع.. إلى غير ذلك من الوجوه المعاشية.." (ابن جبير، م. لا.ت: 250)، وكذلك المقرئ أبو الحسن علي التّجيبي الشاطبي (ت 626هـ/1229م) نزيل دمشق، من أصحاب المقرئ أبي القاسم الشاطبي: "وكان يكرمه لأجل أنه من بلده" (أبو شامة، ع. 1974: 157). وعرف محمد السبتي النجار (ت 626هـ/1229م) بالإحسان للغرباء في مدينة دمشق، ساعياً في تأمين مصالحهم وتيسير أمور حياتهم (أبو شامة، ع. 1974: 157)، ومثله كان الفقيه المالكي أبو إسحاق إبراهيم الرعيني الإشبيلي (ت 687هـ/1288م) (المقري، أ. ج2، 1997: 517- 518). كما خصص المغاربة الميسورون في دمشق أموالاً وأملاكاً وأوقافاً لمساعدة الجماعات المغربية في المدينة (ابن جبير، م. لا.ت: 281؛ الذهبي، م. حوادث 611- 620، 1988: 197- 198؛ ابن كثير، إ. ج14، 1983: 104؛ المقري، أ. ج2، 1997: 240).

5- الغَيْرة المتبادلة

ومن العناصر التي باعدت بين المغاربة والمشارقة الغَيْرة والحسد اللذان يولدان الجفاء والفرقة والكراهية، ولاسيما بين الأعيان المغاربة وأعيان دمشق. من ذلك؛

العداء الذي كان يكنه مؤرخ دمشق ابن عساكر لمعاصره الرحالة أبي حامد محمد القيسي الغرناطي (ت 565هـ/1169م) (ابن عساكر، ع. ج54، 1995: 113- 114) ومحاولة القاضي الفاضل إهانة عبد المنعم الجلياني، طبيب السلطان صلاح الدين، بإظهاره استهزاءاً واستصغاراً لمدينته جليانة الأندلسية (المقري، أ. ج2، 1997: 636). وقد ذكر أبو شامة أن "العدا" ترى الصفات الحميدة التي تتمتع بها زوجته المغربية، ذميمة ومرفوضة (أبو شامة، ع. 1974: 197). كما أشار المؤرخ ابن أيبك الصفدي إلى دور "الشنَّاع"، في كل زمان ومكان في التعرض لأهل العلم والشخصيات المنفتحة في أفكارها وأصحاب السيرة الحسنة، وذلك في معرض ترجمته للمتصوف ابن عربي والمحدث عمر بن دِحية المغربي الكلبي البلنسي (ت633هـ/1235م) (الصفدي، خ. ج4، 1981: 175، وج 22، 1983: 455.). وعلى الرغم من الصداقة الحميمة التي جمعت بين ابن مالك الجيّاني الأندلسي النحوي (ت 672هـ/1275م) وابن خلكان، فإن هذا الأخير أسقط ترجمة ابن مالك من "الوفيات"، فعوتب على ذلك (المقري، أ. ج2، 1997: 223، 228، 233). ولحق بالخطيب نجم الدين الحسن بن محمد القرطبي (ت 723هـ/1223م) ضرر شديد على يد معاصريه من العلماء والأعيان، فكان عليه التنقل ما بين صفد ودمشق، ولكن الدماشقة كثيراً ما عادوه "ومقتوه"، رغم كونه شيخاً فاضلاً وعالماً كبيراً (الصفدي، خ. ج12، 1979: 256- 263؛ ابن حجر، أ. ج2، 1997: 26).

ويضاف إلى ما تقدم أن مواقف الكراهية والعداء تجاه بعض المغاربة في دمشق تطورت إلى حد تعرض بعضهم للضرب والتعذيب وحتى للقتل، من هؤلاء: ابن معيشة الكناني السبتي المتكلم (ت 587هـ/1191م) (الصفدي، خ. ج9، 1974: 227)، والفقيه الشافعي علاء الدين علي الباجي الأندلسي (ت714هـ/1315م) (المقريزي، أ. ج2، 1997: 499)، والنحوي مجد الدين محمد التونسي (ت 718هـ/1318م) (ابن قاضي شهبة، أ. ج2، 1987: 286؛ النعيمي، ع. ج2، 1990: 229)، والمتصوف عثمان الدكالي (ت 741هـ/1341م) (الصفدي، خ. ج19، 1993: 521؛ ابن كثير، إ. ج14، 1983: 189- 190).

سادساً: خاتمة واستنتاجات

على الرغم من كثرة المعوقات التي واجهت مسألة اندماج المغاربة في المجتمع الدمشقي، فإن ثمة مؤشرات كثيرة تشي بترجيح كفة تكيّفهم وتآلفهم مع الدماشقة. فقد قدّر المشارقة عموماً أهل دمشق خصوصاً للمغاربة إسهاماتهم الجلة في تطور المجتمع الدمشقي على غير ما صعيد؛ ويشهد على ذلك أن عدداً وافراً من المغاربة المقيمين في دمشق عرفوا بالعلم والأخلاق والاستقامة حتى غدت عبارات الصدق والأمانة والزهد والورع عناوين بارزة ميزتهم. وليس أدل على المكانة الرفيعة التي حاز

عليها المغاربة في دمشق من شدة إعجاب كبير علمائها محيي الدين يحيى النووي (ت 676هـ/ 1277م) بأصحابه وأساتذته المغاربة، وهم كثر؛ فجاءت أقواله عنهم وكأنها محاولة من هذا العالم الكبير لدحض كل سمعة سيئة ألصقت بالمغاربة، فقال مثلاً عن أحدهم : "أول شيوخي الإمام المتفق على علمه، وزهده وورعه وكثرة عبادته وعظيم فضله وتميزه في ذلك على أشكاله" (ابن قاضي شهبة، أ. ج2، 1987: 102)، وقال عن آخر: "..ولم ترَ عيني في وقته مثله... صحبته نحو عشر سنين، لم أر منه شيئاً يكره." (ابن قاضي شهبة، أ. ج2، 1987: 127).

بالإضافة إلى ذلك، شُهر المغاربة الذين حلُّوا في بلاد الشام في فترة العصور الوسطى بمزايا رفيعة عكستها الذاكرة الشعبية المشرقية على مدى العصور، بحيث ظهرت في الروايات المتناقلة بين الناس وفي الحكايا والأساطير. من ذلك ما تتحفنا به السِّير الشعبية، مثل "سيرة الحاكم بأمر الله" " و"سيرة الظاهر بيبرس" اللتين كتبتا في العهد العثماني، من روايات عن المغاربة في المشرق الإسلامي كبحَّارة مَهرة، وتصفهم بالشجعان والأشاوس والأبطال والأذكياء والأتقياء، وتتحدث عن التقدير الكبير الذي كان لهم لدى الحكام المشرقيين.

وكان المتصوف ابن عربي من الشخصيات المغربية التي حافظت على ذكراها في المدينة. فمع دخول العثمانيين إلى دمشق عام 1517/923م أمر السلطان سليم ببناء قبة على ضريح المتصوف ابن عربي، وبنى بجانبها جامع وتكيّة ورتّب عليها الأوقاف. وعرف المكان بـ"رباط الشيخ محيي الدين" (المقري، أ. ج2، 1997: 179- 180)، وكان ضريحه، في منتصف القرن التاسع عشر، يزار كل يوم جمعة للتبرك، كما أن مشاعر الاحترام والتقدير لهذا الصوفي ما تزال ماثلة في نفوس الدمشقيين إلى يومنا هذا، ويطلق اسمه على الحي الذي يرقد فيه في صالحية دمشق (بلاثيوس، آ. 1965: 95- 96).

وكذلك، فإن بعض الأسر المغربية التي استقرت في دمشق منذ بدايات العصور الوسطى استمرت محافظة على وجودها في المدينة في القرون اللاحقة ولاسيما بني الشريشي،الزواوي، الصنهاجي، التونسي، البكري، وكذلك أسرة المغربي، التي يطلق اسمها على كل من جاء من المغرب والأندلس، ولها انتشار ليس فقط في دمشق بل في سائر أنحاء بلاد الشام (ابن قاضي شهبة، أ. ج3، 1987: 132، 181؛ ابن حجر، أ. ج1، 1997: 24؛ النعيمي، ع. ج1، 1990: 87، 122، وج 2، 1990: 15، 16، 17).

يبقى، أن المغاربة الوافدين إلى حاضرة الشام استمر في العصور الحديثة، ومارسوا فيها حضوراً لم يختلف عما كان عليه في السابق، لاسيما في مجالي العلم والدين. نخص بالذكر من المغاربة جميعاً الأمير عبد القادر الجزائري الحسني النسب، الذي بويع أميراً على المغرب الأوسط (الجزائر اليوم) عام 1248 هـ/ 1832م، فقاد حرب تحرير البلاد من الاحتلال الفرنسي، إلى أن وقع أسيراً في يد الفرنسيين

الذين نفوه عام 1852م إلى الشرق. بعد مروره باسطنبول، استقر عبد القادر الجزائري في دمشق من عام 1856 م إلى حين وفاته عام 1883؛ وكانت له مشاركة بارزة في الحياة السياسية والعلمية هناك. وأثناء وجوده في المدينة، حدثت فتنة عام 1860م في الشام واندلعت الأحداث الطائفية الدامية، فلعب الأمير الجزائري دور رجل الإطفاء بجدارة، وفتح بيوته للاجئين إليه من المسيحيين في دمشق، وهي مأثرة لا تزال تذكر له إلى اليوم، إلى جانب كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي في بلاده الجزائر.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

- ابن الأثير، علي. (1995، 1995، 1979). الكامل في التاريخ (ج9 وج10، وج11)، بيروت: دار صادر.
- ابن أبي أصيبعة، أحمد. (1979). عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ج3)، بيروت: دار الثقافة.
- ابن بطوطة، محمد. (لا.ت.). رحلة ابن بطوطة المسمّاة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، بيروت: دار الكتب العلمية.
- البغدادي، إسماعيل. (1955). هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (ج2)، ط 3. استانبول: مطبعة المعارف.
- بلاثيوس، آسين: ابن عربي، حياته ومذهبه، ترجمه عن الإسبانية عبد الرحمن بدوي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1965.
- ابن جبير، محمد. (لا.ت.). تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، المعروف بـ"رحلة إبن جبير"، بيروت: دار صادر.
- الجزري، محمد. (1998). تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (ج1)، ط 1. صيدا – بيروت: المكتبة العصرية.
- حاجي خليفة، مصطفى. (1990). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (ج1 وج2)، بيروت: دار الفكر.
- ابن حجر العسقلاني، أحمد. (1997). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (ج1 وج2)، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الحموي، ياقوت. (1995). (لا.ت.). معجم البلدان (ج1 وج5)، ط2. ط2. بيروت: دار صادر.
- الحميري، محمد. (1975). الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت: مكتبة لبنان.
- الخالدي، طريف: فكرة التاريخ عند العرب، من الكتاب إلى المقدمة. ترجمه عن الإنكليزية حسني زينة، دار النهار للنشر، ط 1، بيروت، 1997.
- ابن الخطيب، محمد. (1973، 1977). الإحاطة في أخبار غرناطة (ج1 و ج4)، ط2. ط1. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- ابن خلدون، عبد الرحمن:
  - (2003). تاريخ إبن خلدون المسمّى بـ "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر" (ج6)، ط2. بيروت: دار الكتب العلمية.
  - (لا.ت.). مقدمة إبن خلدون، بيروت: دار الجيل.
- ابن خلّكان، أحمد. (1969، 1994). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (ج2 وج6)، بيروت: دار صادر.

- الذهبي، محمد. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام:
- (1994، 1995، 1999). (حوادث 511- 520هـ) ، و (حوادث 541- 550هـ)، (حوادث 651- 660هـ)، ط1، ط1، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي.
- (1988). (حوادث 601- 610هـ) ، و(حوادث 611- 620هـ) ، و(حوادث631- 640هـ)، ط 1، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- زيادة، نقولا: الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت - دار الكتاب المصري، القاهرة، 1987.
- ابن سعيد، علي:
- (1959). ختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- (1945). الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، مصر الجديدة: دار المعارف.
- (1997). المُغرِب في حُلى المَغرِب (ج1 وج2)، ط 1. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو شامة، عبد الرحمن:
- (1974). تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط 2. بيروت: دار الجيل.
- (1287- 1288هـ). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (ج1 وج2)، طبعة مصورة عن الطبعة المصرية، بيروت: دار الجيل.
- ابن شدّاد، محمد. (1953، 1956). الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (ج1 قسم1) و (ج1، قسم2)، دمشق: المعهد الفرنسي للدراسات العربية.
- الصفدي، خليل. الوافي بالوفيات:

(1981). ج1...ج7، ط2. فيسبادن: دار نشر فرانز شتاينر.

- (1972). ج6، ط1. فيسبادن: دار نشر فرانز شتاينر.
- (1974). ج9، ط1، فيسبادن: دار نشر فرانز شتاينر.
- (1979). ج12، ط1. عمان: الجمعية العلمية الملكية.
- (1982). ج17، ط1. فيسبادن: دار نشر فرانز شتاينر.
- (1988). ج18وج21، ط1.فيسبادن:دار نشرفرانز شتاينر.
- (1993). ج19، ط1.شتوتكارت: دار نشر فرانز شتاينر.
- (1983). ج22، ط1. فيسبادن: دار نشر فرانز شتاينر.
- (1993). ج24، ط1. فيسبادن: دار نشر فرانز شتاينر.
- (1997). ج29، ط1. برلين: دار الكتاب العربي.
- الطرطوشي، محمد. (1990). سراج الملوك، ط1. لندن: دار رياض الريس.
- عبّاس، إحسان: "رحلة ابن العربي إلى المشرق، كما صورها "قانون التأويل"". مجلة الأبحاث، الجامعة الأميركية في بيروت، جزءان، السنة 21، عدد آذار، بيروت، 1968، الجزء الأول (ص.ص. 59- 91).
- العبدري، محمد. (1968). رحلة العبدري المسمّاة الرحلة المغربية، الرباط: وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية.

ابن عربي، محمد. (1998). الفتوحات المكية في معرفة أسرار المالكية والملكية (ج4)، ط1. بيروت:

دار إحياء التراث العربي.
- ابن عساكر، علي. (1995). تاريخ دمشق (الأجزاء 4، 32، 48، 54، 55، 57)، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.
- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي. (1351هـ). شذرات الذهب في أخبار مَن ذَهب (ج5)، مكتبة القدس: منشورات حسام الدين القدسي.
- الغرناطي، محمد. (1999). المُغرِب عن بعض عجائب المَغرب، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن فضل الله العمري، أحمد. (2002). مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ج4)، أبو ظبي: المجمع الثقافي.
- ابن قاضي شهبة، أبو بكر. (1987). طبقات الشافعية (ج2 وج3)، ط1. بيروت: عالم الكتب.
- القفطي، علي.
  - (1326هـ) .أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط1. مصر: مطبعة السعادة.
  - (1952). إنباه الرُّواة على أنباه النّحاة (ج2)، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.
- ابن القلانسي، حمزة. (1983). تاريخ دمشق، ط1. دمشق: دار حسان للطباعة والنشر.
- القلصادي، علي. (1978). رحلة القلصادي، تونس: الشركة التونسية للتوزيع.
- كاهين، كلود: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، ط 1، القاهرة، 1995.
- ابن كثير، إسماعيل. (1983). البداية والنهاية (ج13 وج 14)، ط5. بيروت: مكتبة المعارف.
- كونل، أرنست: الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966.
- المراكشي، محمد. الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة:
  - (1964). ج4، بيروت: دار الثقافة.
  - (1965). ج5 قسم 1، بيروت: دار الثقافة.
  - (1973). ج6، ط1. بيروت: دار الثقافة.
  - (1984). ج8 قسم1، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
- المقدسي، محمد. (1906). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2. بيروت: دار صادر عن طبعة ليدن.
- المقريزي، أحمد. (1997). السلوك لمعرفة دول الملوك (ج2)، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- المقري التلمساني، أحمد. (1997). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (ج1 وج2 وج4)، طبعة جديدة. بيروت: دار صادر.
- ابن منقذ، أسامة. (1999). كتاب الإعتبار، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الناصروي السلاوي، أحمد. (1954). كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (ج1 و ج2)، الدار البيضاء: دار الكتاب.
- النعيمي، عبد القادر. (1990). الدارس في تاريخ المدارس (ج1 وج2)، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- النويري، أحمد. (1992). نهاية الأرب في فنون الأدب (ج29)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ابن واصل، محمد. (1972، 1977). مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب (ج4 وج5)، القاهرة: مطبعة دار الكتاب.

- الوهراني، محمد. (1968). منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، مصر: دار الكتاب العربي.
- اليافعي، عبد الله. (1338هـ، 1339هـ). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، (ج3 وج4)، ط1. حيدر آباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف النظامية.
- اليونيني، موسى. ذيل مرآة الزمان، :
  ▪ (1961). م 4 السنوات (678- 686هـ)، ط1. حيدر آباد الدكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.
  ▪ (1991). مجلد في السنوات (697- 711هـ)، دراسة وتحقيق حمزة عباس، رسالة دكتوراه لنيل شهادة في التاريخ، الجامعة اليسوعية، بيروت، لبنان.
- (1923، 1923، 1926). سيرة الظاهر بيبرس الشعبية (ج2 وج3 وج4)، ط2. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (1252هـ). سيرة الحاكم بأمر الله تعالى الشعبية (ج4)، طبعة مكتبة برلين، مخطوط رقم 9153- 9154.

ثانياً : المراجع بالإنكليزية والفرنسية:

- Ateş, A.: Art. "Ibn Al-'Arabī", EI2, Vol. III, London, 1979, (p.p. 707-711).
- De Gaury, G.: Rulers of Mecca, London, First pub., 1951.
- Dozy, R.: Spanish Islam, A History of the Moslems in Spain, translated by F. G. Stokes, new ed., London, 1972.
- Ferrand, Gabriel: "Le Tuhfat Al-Albāb, de Abū Hāmid Al-Andalusī Al-Garnātī", Journal Asiatique, la Bibliothèque National et le MS. d'Alger, Paris, Jui.-Sep., 1925, (p.p. 32-241).
- Fleish, H: Art. "Ibn Mālik", EI2, Vol. III, Leiden, 1979, (p.p. 861-862).
- Ghovirgate, A.: De Toulouse à Tripoli, Itinéraire des Cultures Croisées, "La Représentation des Croisades dans le Récit de Voyage d'Ibn Ğubayr", Balamand, 1997, (p.p. 197-210).
- Gilbert, Joan, E.: "Institutionalization of Muslim Scholarship and Professionalization of the Ulamā in Medieval Damascus", Stvdia Islamica, LII, Paris, 1980, (p.p. 105-134).
- Kirk, George: A Short History of the Middle East from the Rise of Islam to Modern Times, London, 1952.
- Lévi-Provençal E. and others (Latham, J.D., and Torres Ballás, L. and Colin, G.S.): art. "Al-Andalus", EI2, vol. I, Leiden, 1979, (p.p. 486-503).
- Lévi-Provençal, E. and Van-Donzel, E.: art. "Moors", EI2, vol. VII, Leiden – New york, 1993, (p.p.235-236).
- Neuwirth, Angelika: Art. "Al-Shātibī", EI2, Vol. IX, Leiden, 1979, (p.p. 365-366).
- Runciman, Steven: A History of the Crusades, Vol. III, London, 1954.
- Talbi, M.:
  - Art. "Maghāriba", EI2, vol. V, Leiden, 1986, (p.p.1159- 1161).
  - Art. "Mashāriḳa", EI2, vol. VI, Leiden, 1991, (p.p. 712-713).
- Yver, G.: art. "Al-Maghrib", EI2, vol. V, Leiden, 1986, (p.p. 1183-1184).